﴿ٱشۡتَرَوۡاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلٗا فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٩﴾ [التّوبة: 9]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تنوُّعُ الأدلَّةِ على كُفرِ المُشرِكينَ لإظهارِ الحُجّةِ عليهم

لمّا كَشَفَ اللّهُ سَرائِرَهُم، وبيَّنَ خِداعَهُم شَرَعَ يُقيمُ لهم دليلًا آخرَ على فِسقِهِم بتمسُّكِهِم بكفرِهِم، فقالَ مُعبِّرًا بما يُفيدُ أنّهُم تَمَكَّنُوا مِنَ الكُفرِ تَمَكُّنًا صارُوا بهِ كأنَّهُ في حَوزَتِهِم: ﴿ٱشۡتَرَوۡاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلٗا﴾ الآيةَ[1]، لقد " أعرَضوا عن آياتِ اللّهِ، واستبدلُوا بِها عَرَضًا قليلًا مِن أعراضِ الدّنيا، ومنعُوا النّاسَ عنِ الدُّخولِ في دينِ اللّهِ، إنّ هؤلاء قَبُحَ ما كانُوا يَعمَلُونَ"[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَصَدُّواْ﴾: يدورُ معنى الصّدِّ حولَ الاعتراضِ بقَوِيٍّ أو كثيفٍ، يَرُدُّ المقبلَ أو يمنعُهُ، كالجبلِ بالنّسبةِ للسّائرِ باتّجاهٍ، يُقالُ: صددتُ فلانًا عنِ الأمرِ؛ إذا عدلتَهُ عنهُ ومنعتَهُ وصرفتَهُ، وقد يكونُ انصرافًا عنِ الشّيءِ وإعراضًا عنهُ، وقد يكونُ صرفًا ومنعًا للغيرِ بحيث يحولُ عنهُ، و﴿فَصَدُّواْ﴾؛ بمعنى: مَنَعُوا[3]، "يُقالُ: صدَّ فلانًا عن كذا صدًّا؛ إذا منعَهُ وصَرَفَهُ عنهُ، قالَ اللّهُ ﷻ: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعۡبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾ [النّمل: 43]؛ أي: صدَّها كونُها مِن قومٍ كافرينَ عنِ الإيمانِ. وفي التّنزيلِ: ﴿فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [النّمل: 24]، كأصَدَّهُ إصدادًا، وصَدَّدَهُ، وأنشدَ الفرّاءُ لذي الرُّمَّةِ:

أُناسٌ أَصَدُّوا النَّاسَ بالسَّيفِ عَنهُمُ *** صُدُودَ السَّوَاقِي عَن أُنُوفِ الحَوائِمِ"[4].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/385 - 386.
(2) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 259.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والفيّوميّ، المصباح المنير، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (صدد)، وابن جرير، جامع البيان: 14/151.
(4) الزّبيديّ، تاج العروس: (صدد).

2) ﴿سَآءَ﴾: يُقالُ: ساءَ ما فَعَلَ فلانٌ صنيعًا يَسوءُ؛ أي: قَبُحَ صنيعُهُ صنيعًا، والسُّوءُ: الفُجُورُ والمُنكَرُ، ويُقالُ: فُلانٌ سيِّئُ الاختيارِ، وقد يُخفَّفُ، مِثلُ: هَيِّنٍ وهَيْنٍ، ولَيِّنٍ ولَيْنٍ. قالَ الطُّهَوِيُّ:

ولَا يَجزُونَ مِن حُسْنٍ بسَيِّءٍ *** ولَا يَجزُونَ مِن غِلَظٍ بِلَيْنِ[1].

والسّيِّئُ خلافُ الحَسَنِ، وهو اسمُ فاعلٍ مِن ساءَ يَسوءُ، إذا قَبُحَ، وهو أسوأُ القومِ، وهي السَّوأى أي: أقبحُهم، والنّاسُ يقولونَ: أسوأُ الأحوالِ، ويريدونَ الأقلَّ أو الأضعفَ، والمُساءَةُ نقيضُ المَسرَّةِ. وبدَت مَساويه؛ أي: نقائصُهُ ومعايبُهُ[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

بيانُ عراقةِ المُشرِكينَ في القبائحِ، وأنَّها راسخةٌ في جبلَّتِهم

استبدَلُوا بآياتِ اللّهِ قليلًا مِن عَرَضِ الدّنيا التَّافهِ، وهُو اتِّبَاعُ الشَّهَواتِ والأَهواءِ، فأعرضُوا عن الحقِّ، ومنعُوا الرّاغبينَ في الإسلامِ مِن الدُّخولِ فيهِ، لقد قَبُحَ عملُهُم مِن اشترائِهم الكفرَ بالإيمانِ، وصدِّهم عن سبيلِ اللّهِ مَن آمنَ باللّهِ ورسولِهِ، أو مَن أرادَ أن يُؤمِنَ[3]، إنّهُم بهذا العملِ الخسيسِ الّذي انصرفُوا فيهِ عن الحقِّ وسطوعِهِ قد ساءَ فعلُهُم، وقَبُحَ صنيعُهُم الّذي ما فتئَ يتجدَّدُ آنًا بعدَ آنٍ، ويستمرُّ إلى عصرِنا هذا، ثمّ إلى أن يَرِثَ اللّهُ الأرضَ ومَن عَلَيها[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الاستعارةِ في ﴿ٱشۡتَرَوۡاْ﴾:

خسارةُ الكافرينَ وخيبتُهم ببيعِهم آياتِ اللّهِ مُقابلَ مَنافعَ قليلةٍ

لَمَّا تَرَكَ المشركونَ دِينَ اللّه وآياتِهِ، وَآثَروا الكُفرَ وما كانوا عليهِ كَانَ ذَلِكَ بمَنزِلَةِ الاستبدالِ، فصارَ كالشِّرَاءِ والبَيعِ، فجاءَ الكلامُ في قولِهِ: ﴿ٱشۡتَرَوۡاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلٗا﴾ على طريقِ الاستعارةِ

(1) ابن منظور، لسان العرب: (سوأ).
(2) الفيّوميّ، المصباح المنير: 1/298.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 14/150، ونخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 188.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3238.

التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّةِ، وبيانُهُ: أنَّه شبَّهَ آياتِ اللهِ القريبةَ منهم الثّابتةَ عندَهُم بمالٍ بأيديهم، بذلُوهُ وفرَّطُوا فيهِ لأجلِ اقتناءِ مَنافعَ قليلةٍ، فلمّا تركُوا ما قد مُكِّنوا منه وأخذُوا ما يمكنُ نبذُهُ مثَّلَ حالَهُم بحالِ مَنِ اشترى شيئًا بشيءٍ؛ إيذانًا بخيبةِ مُعاملتِهم وخسارتِهم الكبيرةِ بهذا الشّراءِ[1].

دلالةُ الباءِ في قولِهِ: ﴿بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾:

العوضُ يقتضي المُعاوضةَ بينَ شيئين

الباءُ للعوضِ، وشأنُها أنْ تدخلَ على ما هو عِوَضٌ يبذلُهُ مالِكُهُ، لأخذِ مُعوَّضٍ يملكُهُ غيرُهُ، وتفيدُ هنا أنَّ المَبذولَ هو آياتُ اللهِ، والمأخوذَ هو الثَّمنُ القليلُ، وكونُهُم (اشتَرَوا بِآياتِ اللهِ ثَمَنًا قَلِيلًا)؛ "أي: باعُوها بثمنٍ هو عرضٌ من أعراضِ الدّنيا، وهو قليلٌ بجوارِ الحقائقِ الخالدةِ الّتي فيها الصّلاحُ في الدّنيا والآخرةِ"[2].

دلالةُ تركيبِ ﴿بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾:

أعظمُ دلائلِ الإسلامِ هي القرآنُ؛ لظهورِ حُجّتِهِ

المُرادُ بـ ﴿بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ الدَّلائلُ، فيكون المعنى على العُمومِ، وهي دلائلُ الدّعوةِ إلى الإسلامِ، وأعظَمُها القُرآنُ؛ لِمَا اشتمَلَ عليهِ مِنَ البراهينِ والحِجاجِ، ومِن جُملَتِهِ ما فِيهِ الأمرُ بالوَفاءِ بالعُهودِ والاستقامةِ، فيدخل فيها دخولًا أوَّليًّا[3].

بلاغةُ الاستعارةِ في ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾:

التّعجيبُ ممّن يَزهَدُ بآياتِ اللهِ، ويحرِصُ على اتّباعِ الهوى

جاءَ قولُهُ: ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ على طريقِ الاستعارةِ المكنيَّةِ؛ إذ شُبِّهَ أهواءُ المُشركينَ ومنافعُهُم بالثّمنِ القليلِ الّذي مِن شأنِهِ أن يُبذَلَ ولا يُقتَنَى؛ ثمَّ حُذِفَ المشبَّهُ وصُرِّحَ بالمشبَّهِ بهِ في هذا التّشبيهِ؛ إيذانًا بأنّهُم قَلبُوا الأمرَ؛ لأنَّ الثّمنَ يكونُ مَدفوعًا لا مَأخوذًا؛ إذ كانَت آياتُ اللهِ هي المدفوعةَ في مُقابلِ تحصيلِ الثّمنِ القليلِ، والنُّكتةُ في هذا

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/11، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/378.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3238.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/125.

القلبِ التّنبيهُ على عجيبِ فعلِهم وتقبيحِه؛ إذ زهدُوا بآياتِ اللّهِ، وحَرصُوا على اتّباعِ أهوائِهم؛ إشارةً إلى أنّهم فعلُوا عكسَ ما كانَ يجبُ أن يفعلُوهُ[1].

سرُّ الوصفِ بـ ﴿ٱشۡتَرَوۡاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلٗا﴾:

لا عُذرَ لِمُشرِكٍ بعدَ ظهورِ الإسلامِ وانتشارِهِ ومَكِنتِهِ

لم يَصِفِ القرآنُ المشركينَ بمثلِ ما وصفَ به أهلَ الكتاب في سورةِ البقرةِ؛ مِنَ الاشتراءِ بآياتِ اللّهِ ثمنًا قليلًا إلّا في هذهِ الآيةِ، ثمَّ لم يُوصَفُوا بمثلِ هذا في آيةٍ أخرى نزلَتْ بعدَها؛ لأنَّ نزولَها كانَ في آخرِ عهدِ المُشركينِ بالشِّركِ، إذْ لم تَطُلْ مُدَّةٌ حتَّى دَخَلُوا في دينِ اللّهِ أفواجًا، سَنَةَ الوفودِ وما بعدَها، وفيها دلالةٌ على ظهورِ أمرِ الإسلامِ وصحّتِه، ونُهُوضِ حُجّتِه، فآذنَتِ الآيةُ أنَّهُ ليسَ لَهُم سببٌ في بقائِهم على الشّركِ؛ هؤلاءِ الّذين بقُوا على الشِّركِ مِنَ العربِ بَعدَ فتحِ مَكَّةَ وظهورِ الإسلامِ سوى مَنافعَ يَجتَنُونَها مِن عوائدِ قومِهم؛ مِن غاراتٍ يشنُّها بعضُهُم على بعضٍ، ومَحَبَّةِ الأحوالِ الجاهليَّةِ مِن خَمرٍ ومَيسرٍ وزنىً وغيرِ ذلكَ مِنَ المَذمَّاتِ واللَّذَّاتِ الفائتةِ، وذلكَ شَيءٌ قليلٌ[2].

سببُ وصفِ الثّمنِ بالقليلِ:

كلُّ عرَضِ الدّنيا زائلٌ، وآياتُ الله ثوابٌ خالدٌ

لَمَّا كانَ ما حصَّلُوهُ بدلًا مِنَ الآياتِ، كان في سببِ وصفِهِ بالقليلِ – في قوله تعالى: ﴿ٱشۡتَرَوۡاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلٗا﴾ – وجهان؛ أحدُهما: أنَّ أهواءَهُم وأغراضَهُم مِن عَرَضِ الدّنيا الّذي بقاؤُهُ قليلٌ غيرُ دائمٍ، فهو مَذمومٌ، وفيه كنايةٌ عن أنَّ الحرصَ على آياتِ اللّهِ والالتزامَ بها فيه الثّوابُ الدّائمُ المَحمودُ. والثّاني: أنّه حرامٌ، والحرامُ قليلٌ[3]، وفيه كنايةٌ عنِ التّعجيبِ مِن حالِهم، باشترائِهِمُ القليلَ الزّائلَ، بالكثيرِ الدّائمِ.

(1) الخفاجيّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 4/529، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/125.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/125.
(3) الماورديّ، النّكت والعيون 2/244، وابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/239.

علّةُ التّعبيرِ بالثّمنِ (القليلِ):

الوصفُ بالقليلِ يجعلُ الثّمنَ دونَ قيمةِ المثمَّنِ

قولُهُ: ﴿ٱشۡتَرَوۡاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلٗا﴾؛ في هذه الآيةِ استعملَ السّياقُ لفظَ (ثمنًا)، ووصفَهُ بقولِهِ: (قليلًا)، وقد استعملَ لفظَ (ثمنًا) إحدى عشْرةَ مرّةً في القرآنِ، ووصفَهُ في إحداها مرّةً واحدةً بأنّهُ (بخس)، وفي البواقي بأنّه (قليل)، وذلك في قولِهِ تعالى: ﴿وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۭ بَخۡسٖ دَرَاهِمَ مَعۡدُودَةٖ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ٢٠﴾ [يوسف: 20]، وعليه فكلُّ ما كانَ حقًّا للّه فثمنُهُ قليلٌ؛ لأنّ حقوقَ اللّهِ لا كفاءَ لها، وعطاءَه لا نهايةَ لهُ، ولا يمكنُ الحصرُ للثّمنِ، ولا مقاربتُهُ إلّا أن يُوصَفَ بأنّه قليلٌ، وليسَ معنى ذلك أنّ الثّمنَ الكثيرَ يكافئُها أو يُساويها. ووَصفُ الثّمنِ بالقليلِ وَرَدَ تحقيرًا لشأنِ الثّمنِ، وتهوينًا من قيمتِهِ، وهو في غايةِ الإفصاحِ والبيانِ، وأمّا حقوقُ العبادِ فقد وُصِفَت بلفظِ (بخس)؛ أي: ناقصٍ دُونَ ثَمنِهِ، وباعَهُ بثمنٍ بَخسٍ؛ أي: مَبخوس.

دلالةُ (الفاء) في ﴿فَصَدُّواْ﴾:

مَنْ ضلَّ عنِ الحقِّ وأضلَّ غيرَهُ فقد جمعَ السُّوءَ كلَّهُ

أفادتِ الفاءُ في قولِهِ: ﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِۦٓ﴾ التَّرتيبَ والتَّعقيبَ؛ بمعنى: أنَّ اشتراءَهُمُ الثَّمنَ القليلَ مِنَ المنافعِ والأهواءِ، وإيثارَهم البقاءَ على الكفرِ تسبَّبَ عليهِ أنْ يَصُدُّوا النّاسَ عن سبيلِ اللّهِ، واتّباعِ دينِهِ، وأنَّ الصَّدَّ جاءَ عَقِبَ الاشتراءِ[1]، ولمّا كانَتِ الفاءُ حرفَ عطفٍ يفيدُ الجمعَ، دلَّ على أنّهُم جمعُوا السُّوءَ كلَّهُ، بضلالِ أنفسِهِم وإضلالِ النّاسِ.

بلاغةُ الاستعارةِ في ﴿فَصَدُّواْ﴾:

سبيلُ اللهِ وحدَها المُوصلةُ إلى المقصدِ الأسنى، وهو رضا اللهِ

عُبِّرَ بـ ﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِۦٓ﴾ ليكونَ استعارةً تصريحيّةً تبعيّةً، إذ مثَّلَ حالَ المشركينَ الّذين يمنعونَ النّاسَ عنِ اتّباعِ دينِ اللّهِ بحالِ مَن يصدُّ النَّاسَ بقوَّةٍ عنِ السّيرِ في طريقٍ تُبلِّغُ إلى المَقصُودِ، ويَحُولُ

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/73، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/12.

بينَهُم وبينَها[1]، وفيهِ إيذانٌ بأنَّ سبيلَ اللّهِ هي المُوصلةُ إلى المَقصدِ الأسنى، وهو رضا اللّهِ ومحبّتُهُ وجنّتُهُ.

دلالةُ حذفِ مفعولِ ﴿فَصَدُّواْ﴾:

لمّا كانَ الصَّدُّ بمعنى: الإعراضِ، وبمعنى: المنعِ والصَّرفِ، وكانَ المفعولُ مَحذوفًا دلَّ على أنّ المُرادَ: عدلُوا عن سبيلِهِ، وصَدُّوا كلَّ قاصدٍ عنهُ؛ ليشملَ المُؤمنينَ السَّائرينَ في سبيلِهِ، والرّاغبينَ في السَّيرِ في سبيلِهِ؛ أي: مَن آمنَ، ومَن أرادَ أن يُؤمِنَ، فيكون الحذفُ أقضى لحقِّ البلاغةِ نَظمًا ومعنًى؛ لِلإشعارِ بظلمِهِم وبشدَّةِ قبحِ أعمالِهِم[2].

الصَّدُّ عن سبيلِ اللّهِ يشملُ منعَ المؤمنينَ والرّاغبينَ في الإيمانِ

فائدةُ الإضافةِ في قولِهِ: ﴿سَبِيلِهِۦٓ﴾:

للإيذانِ بأنّهم صَدُّوا المؤمنينَ والرّاغبينَ في الإيمانِ عن كُلِّ ما يُوصِلُ إلى اللّهِ، ولو قالَ: (فصدُّوا عن سبيلِها)، بأنْ يعودَ الضَّميرُ إلى الآياتِ لكانَ المعنى: عنِ الوصولِ إليها، فلمّا قال: ﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِۦٓ﴾كانَ الذَّمُّ أعمَّ؛ لِصدِّهِم عَن كلِّ مَا يُوصِلُ إلى اللّهِ، وكانَ أقبحَ لتعليقِ الصَّدِّ باللّهِ تعالى، فالإضافةُ لتشريفِ السّبيلِ وتعظيمِهِ[3].

رغبةُ الكافرينَ في الصَّدِّ عن كلِّ ما يُوصِلُ إلى رضا اللهِ

دلالةُ ﴿عَن سَبِيلِهِۦٓ﴾ بينَ الحقيقةِ والمجازِ:

يحتملُ أن يكونَ المعنى: فصدُّوا عن دينِهِ المُوَصِّلِ إليهِ، فيكون التّعبيرُ بالسّبيلِ على طريقِ المجازِ، أو أن يكونَ المعنى: فصدُّوا عن سبيلِ بيتِهِ بحصرِ الحُجَّاجِ والعُمَّارِ، فيكون مِنَ الحقيقةِ، والأوّلُ أعمُّ وأظهرُ وأشنعُ مِن كلِّ شنيعٍ[4]؛ لأنَّ صدَّ الحُجّاجِ والعُمّارِ عنِ الوصولِ إلى بيتِهِ، يَدخلُ في الصَّدِّ عن دينِهِ الموصِّلِ إليه ﷺ.

الصَّدُّ عن سبيلِ اللّهِ يشملُ الصّدَّ عن زيارةِ بيتِهِ المُعظَّمِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/125.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 14/151، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/11، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/126.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/46.

(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/73، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/167.

مناسبةُ مجيءِ الكلامِ على مُقتضَى الظّاهرِ:

لم يقُلْ: (فصَدُّوا عن سبيلِ اللهِ)، بل جاءَ بالضّميرِ فقالَ: ﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِۦٓ﴾؛ لِقُربِ ذكرِ الاسمِ الجليلِ؛ ليكونَ على مُقتضَى الظّاهرِ للإيجازِ، ولِيكونَ المرادُ مِنَ الضّميرِ عينَ المذكورِ أوّلًا؛ إيذانًا بأنَّ آياتِ اللهِ الّتي استبدلُوهَا هي مِن سبيلِهِ المُوصِّلِ إليه ﷻ.

آيـاتُ اللهِ الّتي يزهَدُ بها الكافرونَ هي مِنَ السَّبيلِ الموصِّلِ إلى اللهِ تعالى

سببُ إيثارِ التَّعبيرِ بالجملةِ الابتدائيَّةِ:

عُبِّرَ بالجملةِ: ﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ بطريقِ الاستئنافِ الابتدائيِّ، ففُصِلَتْ عَنِ الّتي قبلَها؛ لِيظهَرَ استقلالُها بالإخبارِ بذمِّهِم، وذمِّ عملِهِم، فتفيدُ ثبوتَ المعنى واستقرارَه فيهم، فكانَ لا ينبغي أنْ تُعطَفَ في الكلامِ، إذِ العطفُ يَجعَلُ الجُملةَ المعطوفةَ بمَنزلةِ التَّكملةِ لِلمَعطوفَةِ عليها، وافتُتِحَت بحرفِ التَّأكيدِ لتأكيدِ ذمِّهِم[1].

استئنافُ الكلامِ لِيظهرَ ذمُّ الكافرينَ، ويستقلَّ في الكلامِ

دلالةُ (إنَّ) والضمير المتصل بها في ﴿إِنَّهُمْ﴾:

تفيدُ (إنَّ) تأكيدَ مَضمونِ الجملةِ؛ إيذانًا بأهمّيَّةِ الخبرِ، ولتقريرِهِ في نفوسِ المُخاطَبين. ويَعودُ الضّميرُ إلى المُشركينَ مع الأوصافِ الّتي وُصِفُوا بها، ويدخلُ فيها دخولًا أوّليًّا اشتراؤُهم بآياتِ اللهِ ثمنًا قليلًا؛ ليكونَ الخبرُ في قولِهِ: ﴿سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ شاملًا كلَّ ما ذكرَ؛ لِيُفيدَ الخبرُ ذمَّ ذواتِهِم على اتِّصافِهِم بهذهِ الأعمالِ؛ لِوقوعِ الجملةِ خبرًا عنِ الضّميرِ، ولِيُفيدَ ذمَّ عملِهِم بدلالةِ المُطابقةِ على ذمِّ عملِهِم، فيكون تأكيدًا وتقريرًا.

ذمُّ ذواتِ المُشركينَ لاتِّصافِهِم بالشّركِ، وذمُّ عملِهِم الصّادرِ عنِ الشِّركِ

دلالةُ الفعلِ ﴿سَآءَ﴾:

يحتملُ الفعلُ ﴿سَآءَ﴾ في قولِهِ: ﴿سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ أنْ يكونَ مِن أفعالِ الذَّمِّ، مِن بابِ بِئسَ، والمَخصوصُ بالذَّمِّ محذوفٌ، وتقديرُ الكلامِ: (ساءَ العملُ ما كانُوا يعملونَ) أو (ساءَ ما كانُوا يَعملُون

اشتراءُ الأهواءِ بآياتِ اللهِ عملٌ سيئٌ، ويَسُوءُ صاحبَهُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/126.

عملُهُم)، ويحتملُ أن يكونَ على بابِه: فإمَّا أن يكونَ فعلًا لازمًا؛ بمعنى: قَبُحَ مُضمَّنًا معنى بئس؛ لتكثيرِ المعنى، ولهذا اقتُصِرَ على الفاعلِ؛ والمعنى: ساءَ ما كانوا يَعملُونَ، وبِئسَ ما كانوا يَعملونَ، فيفيد تقبيحَ ما يَعملونَ وذمَّهُ، وإمّا أنْ يكونَ فعلًا مُتعدِّيًا جامدًا حُذِفَ مفعولُهُ، كقولِهم: (ساءَني كذا)، والتَّقديرُ: إنّهُم ساءَهُم ما كانوا يَعملونَ، ونكتةُ حذفِ المفعولِ بيانُ أنَّ السُّوءَ قد صارَ وَصفًا لازمًا لكلِّ ما كانُوا يَعملونَ[1].

دلالةُ ﴿مَا﴾ في ﴿مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾:

عُبِّرَ بـ ﴿مَا﴾ في قولِهِ: ﴿سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾، ولم يقل: (ساءَ الّذي كانُوا يَعملُونَ)؛ إشعارًا بسوءِ جميعِ عملِهِم، ويدخلُ فيه دخولًا أوّليًّا أعمالهُم المذكورة في هذه الآياتِ، فكأنَّهم ليسَ لهم عملٌ سوى ما ذَكَرَ؛ تَعظيمًا لسُوءِ عملِهِم، وتقبيحًا له، وأيضًا لمّا كانَ هذا العملُ أقبحَ عملٍ وأفظعَهُ بعدَ الشِّركِ باللّهِ كانَ سببًا في سوءِ سائرِ أعمالِهِم.

اشـتراءُ الأهـواءِ بآياتِ الله سببٌ في سـوءِ سائرِ الأعمالِ

سببُ إيثارِ التّعبيرِ بـ ﴿مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾:

لم يقُلْ: (إنَّهم ساءَ عملُهم)، بل عبَّر عن عملِهِم بصيغةِ (كانَ يفعل) الدّالَّةِ على الدّوامِ والاستمرارِ في قولِهِ تعالى: ﴿كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّ مَا ذُكِرَ من عملِهِم المتقدِّمِ - أي: نقضِهِمُ العهودَ، وانتفاءِ مُراقبتِهِم الإلَّ والذِّمَّةَ للمؤمنينَ، واشترائِهِم بآياتِ اللّهِ الثّمنَ القليلَ، وصَدِّهِم عن سبيلِ اللّهِ - كلُّ هذا مُستمرٌّ، وأنَّه دَأبٌ لَهُم، ومُتَكَرِّرٌ منهُم، فهُم يُجدِّدُونَ عملَهُ في كلِّ وقتٍ، كما أنَّ في التّعبيرِ بـ ﴿يَعْمَلُونَ﴾ مُراعاةً للفاصلةِ[2].

سـوءُ العـملِ وقـبـحُـه دأبُ الكافرينَ في كلِّ وقتٍ

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/11، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/378، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/73، والسّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 6/23، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/46، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/167.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/389، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/46، والخفاجيّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 530، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/126.

دلالةُ صلةِ الموصولِ في ﴿كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾:

مَـن لا عـقـيـدةَ تَزَعُهُ، ولا مُروءةَ تـردعُـهُ سيُودي به عملُهُ

لمّا كانَت صلةُ الموصولِ مَعلومةَ الانتسابِ عندَ المُخاطَبين دلَّ على أنّ المُشركينَ كانوا يَعلمونَ سوءَ عملِهم مع إصرارِهم عليه؛ لأنّهُم في فعلتِهم تلك ساءَ ما كانُوا يَعملونَ، فَهُم " لا عقيدةَ تَزَعُهُم، ولا مروءةَ تردعُهُم، خارجونَ مِن أصولِ الدّينِ والمروءةِ والأخلاقِ، مُتجاوزونَ حدودَ الصِّدقِ والوفاءِ، مُتحلِّلونَ مِن قيودِ العهدِ والميثاقِ".

فائدةُ حذفِ مفعولِ ﴿يَعۡمَلُونَ﴾:

سـوءُ عـمـلِ الكُفَّارِ لايقتَصِرُ على الكفرِ بالله، بـل يشـمـلُ كـلَّ أعمالِهِم

أفادَ حذفُ المفعولِ أنَّ عملَهُم الموصوفَ بالسُّوءِ، لا يقتصرُ على الكفرِ باللّهِ، بل يشملُ عملَهُم مع أنفسِهم ومعَ النّاسِ، ويُحتملُ أن يكونَ المُرادُ لزومَ السُّوءِ في أيِّ عملٍ يَعملونَهُ إنْ أُريدَ بالفعلِ اللّزومُ، فيفيد سوءَ عملِهم مع اللّهِ ومع النّاسِ أيضًا، فالمآلُ واحدٌ.

فائدةُ مجيءِ الخبرِ جملةً فعليَّةً:

الـجـزاءُ مِـن جنسِ العملِ، ولا يُظلَمُ أحدٌ شيئًا

أفادَ مجيءُ خبرِ (إنَّ) جملةً فعليَّةً في قولِه: ﴿مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ تَقوِّي الحُكمَ بنفسِ التّركيبِ، والمُرادُ تحقيقُ سُوءِ عملِهم دونَ تخصيصِ سُوءِ العملِ بهِم[1]، وعملُهُم المذكورُ في لفظِ ﴿يَعۡمَلُونَ﴾ يشملُ مَا كانُوا يعملونَ مِن اشتراءِ الكُفرِ بالإيمانِ، والضّلالةِ بالهدى، والصُّدودِ والصَّدِّ عن دينِ اللّهِ، وما جاءَ بهِ رسولُهُ مِنَ البيّناتِ والحقِّ[2].

❁ الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

الثّمنُ القليلُ والثّمنُ البَخسُ:

الثّمنُ القليلُ جاءَ في القرآنِ للتّعبيرِ عن آياتِ اللّهِ، وعن عهدِ اللّهِ سبحانَهُ؛ وذلك لأنّ مُقابلَ العدوانِ على حقِّ اللّهِ، مهما بَلَغَ فهو ثمنٌ قليلٌ، وفي ذلكَ يقولُ: ﴿وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَـٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا﴾، فلا ثمنَ

(1) السّكّاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 221.
(2) رضا، تفسير المنار: 10/168.

يُناسِبُ آياتِ اللّهِ ﷻ، ومهما كانَ الثّمنُ فهو قليلٌ؛ لأنّ عظمةَ آياتِ اللّهِ لا تُقدَّرُ بثمنٍ محدودٍ، ولا بِعوضٍ مَعدودٍ، وفي القرآنِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [آل عمران: 77]؛ ويعني الثّمنُ القليلُ هنا: "حطامُ الدّنيا الزّائلُ الفاني"[1]، وأمّا قولُهُ: (ثمن بخس) فمعناهُ: قليلٌ، وقد وَرَدَ في قولِهِ تعالى في قِصّةِ يُوسفَ: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ۝٢٠﴾ [يوسف: 20]، وعلى الأقوالِ كُلِّها: "فالبَخسُ في اللّغةِ: هو نقصُ الشّيءِ على سبيلِ الظّلمِ. والبخسُ والباخسُ الشّيءُ الطّفيفُ، وقولُهُ: ﴿دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ فيه إشارةٌ إلى قلّةِ تلك الدّراهمِ"[2].

الثّمنُ القليلُ: ما كانَ دونَ قيمةِ المثمَّنِ حقيقةً، والبخسُ: نقصُ الشّيءِ ظُلمًا

(1) الخطيب، أوضح التّفاسير، ص: 69.
(2) الخازن، لباب التّأويل: 2/519.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس عشر، سورة الأنفال من الآية 27 إلى سورة التوبة الآية 22
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس عشر، سورة الأنفال من الآية 27 إلى سورة التوبة الآية 22
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 16 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-12-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 16 : المجلد السادس عشر، سورة الأنفال من الآية 27 إلى سورة التوبة الآية 22.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-768-12-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9828150 بتاريخ 2024/01/18م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»